مراجعة كتاب

الحب الطبقيّ المبتور في ٤ روايات لبنانية (*)

عايدة الجوهري

اخترنا الحب موضوعاً لقراءة ٤ روايات لبنانية مكتوبة باللّغة الفرنسية وصدرت بين ٨٩ و٩٥. وقد اخترنا الحب لأنّه يكشف أنماط علاقة النساء بالرجال وصلتها بالآليات الاجتماعية والايديولوجيات الراهنة: العشائرية، الطائفية، العنف... واخترنا الرواية دون الأنواع الأدبية الأخرى لأنها غالباً ما تتحوّل إلى وثيقة، تكشف فيها خيالاتُ الكاتب وتركيباته الروائية الواقعية عن صيغ للتواصل والمشاركة فتأخذ القائمَ والمألوفَ وتتجاوزهما؛ ولأنها - أي الرواية - تدخل دقائق النفس البشرية بحميمية أكبر من النص الفكري أو البحثي.. فمهما كان دور المتخيّل فيها فهي تعكس أشياء الحياة.

وقد اخترنا نصوصاً مكتوبة بالفرنسية لأنها نصوص لبنانية أوّلاً لا بأسماء كاتبيها فحسب بل بمواضيعها واهتماماتها والتصاقها بالواقع اللبناني أيضاً، ولأن هذه اللّغة والمفاهيم والحساسية التي تحملها تقدّم قراءةً مختلفة وخاصةً للواقع الواحد.

وانتقينا هذه النصوص بالذات لأنّها تتيح دراسةَ واقع الحبّ في أزمنة وبيئات مختلفة. فلئنْ نَقَلَتْ روايتا **الكلام المخلوع** و**خمسون** واقعَ الحبّ من بيئة فقيرة - الأولى سنية وكاثوليكية ريفية، والثانية درزية ريفية وكاثوليكية مدينية - فإنّ روايتي **ذاكرة الأرز** و**رسالة ما بعد الموت** تصوّران الحب في بيئة بورجوازية فرانكفونية متأثّرة بالغرب. والزمن المرويّ يتراوح بين أوائل القرن وسنوات الحرب الأخيرة ما عدا رواية **الكلام المخلوع** التي تروي أحداث ٥٨ وتطلّ على السّتينات الأخيرة.

*

عن أيّ حبّ نتحدّث؟

اخترنا الحبّ بالمعنى المتعارف عليه، لا ذاك الذي تتنازعه شطحاتُ المفكّرين والفلاسفة: إذ حكم أفلاطون أنه ضرب من الجنون الإلهي، ودانتي بأنه قوّة كونية كبرى تحرّك الشمس وباقي الأجرام السماوية.. على حين يذهب كاتبٌ مثل بلزاك إلى أن «الحب توافق بين الحاجات الحيوية والمشاعر الوجدانية» وأنه بمثابة «شعر الحواس ومفتاح كل ما هو عظيم في حياة الإنسانية»، وأما بروست وسارتر فقد كانا أقلّ تفاؤلاً إذ قال الأوّل إنّ الحب مجرّد وهم من الأوهام وأننا نطمح عن طريقه إلى امتلاك شخص من الأشخاص.. وآمن الثاني أنّ الحب ضربٌ من العبثية لأنه يردنا في النهاية إلى عزلتنا الأصيلة ولأنه رغبة الاستيلاء على حرية الآخر من حيث هي حرية، مضيفاً أن معنى أن تكون محبوباً هو أنك تريد أن تضع الغير تحت سيطرة إرادتك الخاصة. وأما فرويد فلم ينفِ الحبّ ولكنه جعله تسامياً عن الغريزة الجنسية لا مكملاً أو شرطاً لها.

ولا شك أنّ الحب صورة من صور الوصال الانساني العميقة والمعقّدة، وسوف نعتمد الجانب الايجابي: وهو تبادلٌ شخصي بين الأنا والأنت، واعترافٌ بالقيمة المطلقة للشخصية المحبوبة، وخروج على العزلة والقوقعة الذاتيّتَيْن، وانتصار على الأنانية. وسوف نعتمد الرأي الذي يقول إنّ الحبّ علاقة جسديّة نفسيّة متناغمة.

رسالة ما بعد الموت

انسجاماً مع ما سماه الكاتب عقدة «أوديب الوطنية» التي دفعت اللبنانيين إلى قتل أبيهم لبنان والتعلّق بطوائفهم، يؤدّي تعلّق الراوي الأوديبي بأمّه إلى فتور علاقته بأبيه وإلى اضطراب معظم علاقاته العاطفية. وانسجاماً مع ازدواجية الموقف والانتماء، وعملاً بمقتضيات العقدة الأوديبية يحيا الراوي/ البطل حياتين متوازيتين: واحدة علنية تربطه بفتيات مثقّفات واعيات يطوف بهنّ مقاهي المثقفين كما فعل بسهام التي تبدو علاقته بها ذهنيةً فكريةً بحتة، وأخرى سرّية اقتنى لها «غرسونييرة» في وسط بيروت التجاري يستقبل فيها المومساتِ الأجنبيات كي لا يخون أمّه (ص ٧٤)! والعقدة الأوديبية جعلت الجمعَ بين الحبّ والجنس مستحيلاً كما بين الطائفة والوطن. ويخلو حديثه عن سهام من أيّة إشارة جنسية، فيما يُطنِب في وصف البيوت السرّية وخصائصها الشهوانيةِ الحسيّة.

ولم ينج هذا الإنسان الهامشي المستقلّ من الضغوط العائلية التي تحثّه على الزواج والإنجاب.

خمسون

منال فتاة درزية سورية جرّت جسدها المعوّق والمثقل بالمحرّمات الطهرانيّة وبعقد الذنب وجاءت إلى لبنان.

تقوم سياساتُ منال السلوكية على عدم اللمس: تصدّ الراغبين بها رغبتها بالآخرين بشكل مَرَضيّ هستيري وبقدريّة مطلقة؛ ترفض المعاينات الطبّية التي تعرّضها للمسات الطبيب وهي في أشدّ حالات المرض؛ تصدّ «حسين» بصلف وهمجيّة وتتسبّب بانتحاره؛ وحين أحبت بشغف

(*) نظير حمد: **الكلام المخلوع** (بيروت: دار نوفل، ١٩٩٥)؛ وجوسلين عوّاد: **خمسون** (باريس: ألبان ميشال، ١٩٩٤)؛ وجاكلين مابكي وفرانسوا بوريل. **ذاكرة الأرز** (باريس: روبير لافون، ١٩٨٩)؛ ودومينيك أدّه: **رسالة ما بعد الموت** (باريس: غاليمار ١٩٨٩)

الصحافيّ المسيحي داوود باحثٌ بحبّها له على شريط تسجيل وما إن سلّمته إيّاه حتى اختفت إلى الأبد وعادت إلى جبل الدروز.

حكاية الفتاة الدرزية التي قتلها أخوها لأنها رحلت مع بدوي مازالت حاضرة في ذهنها. وفي موضع آخر تندب أم ماري حظّها لأنّها أنجبت أنثوات بعد أن أحبّت ماري، صديقة منال، رجلاً غرّر بها وتركها. فتعزلها وتنفيها كما المجتمع.

الجسد/ التعويق/ الطهرانية/ الرغبة/ العنف/ الحرب/ مفردات مترادفة.

ذاكرة الأرز

تقوم الرواية كما «لبنان الكبير» على قصّة حبّ فرنسي - لبناني. فرنسوا الذي جاء لبنان أوائل القرن للعمل أحبّ الشابّة اللبنانية «مارت» وأنجب منها أولاداً وأحفاداً شرّدتهم السياسةُ ولوّعهم العنف، والعنف فرز علاقتين مستحيلتين.

- لورين الأميركية الأمّ تقع في حبّ الفدائيّ الفلسطينيّ مروان الذي انتقم لوالديها (ضحايا الخطف الفلسطيني)، تعيش لحظات حب جارف سيريالي الجموح، ولكن استحالة التوفيق بين العمل الثوري والحب تؤول بمروان إلى الموت إذ يتولى رفاقه قتله بعد أن أهمل واجبه الثوري.

- «جان» ابنة فرنسوا الخمسينية المتزوّجة من تاجر سلاح لبناني تعيد اكتشاف جسدها ورغباتها خلال الحرب وبفضلها، وتكتشف إعجابَها بالصحافي الفرنكوني «سركيس» وتعانقه غداةَ مقتل شقيقها ألبير حين جاء يعزّيها وهي في قمّة الحزن. ولم يفترقا منذ تلك اللحظة، بل عاشا حبّاً متنقّلاً بين شقّته في القنطاري وشقّتها الباريسية.

وتستكمل جان رحلتها الايروتيكية بعد اغتيال سركيس. فتستعيد حبّها الأوّل مع فارس في شقّة ريفيّة وتهمل كل ارتباطاتها العائلية في جوّ يتّسم بتذمّر الزوج ومباركة الأب «الواقعيّ». «ألبير» الفرنسي - اللبناني يعيش حالة عشق دائم مع زوجته جويس انتهت بخطفهما وقتلهما. وأما «سولانج» الفرنسية التي لم تعرف الحب فهي تعيش كالمومسات لحاجتها للمال.

ذاكرة الأرز رواية الحب المستحيل الجامح الإحادي.

الكلام المخلوع

في **الكلام المخلوع** حيث العشائر تتقاتل وتتطاحن وحيث يستوي المثقفُ والأمّي بإذكاء نار الحقد والعنف، يتكرّس مفهوم الجسد المؤسّسي والشرف البيولوجي. مريم وإبراهيم متحابّان ويتدخّل في ترتيب زواجهما الآباءُ والأعمامُ والجيران. مريم غير مقبولة لا لأنها عادية الجمال فحسب بل لأن اختها جميلة رحلت مع أحدهم «خطيفةً» بعد أنْ حملت منه ولطّخت شرفَ العائلة إلى الأبد.

ولأنّ الحب من الأسرار المقدّسة ومن سنن الآلهة والرسل ومُنْكَرٌ خارج إطار الزواج، فإنّ الشبيبة تعيشه بالوكالة... وبالكلام أثناء جلسات السمر: فإبراهيم المسيحي يفاخر أمام أصدقائه بمغامراته العاطفية فيُرضي هواياتهم ويثير رغباتهم. هو الوحيد بين أصدقائه الذي عرف جسد امرأة. يروي إحدى مغامراته في مشهد ايروتيكي يحاذي البورنوغرافية ص ٢٦٠ - ٢٦١ - ٢٦٢، ولكن هذه المغامرات غير المأمونة اضطرت ابراهيم للزواج فيما بعد من فتاة كانت قد حملت منه.

للجسد والحب عند أبو غصوب الأب المستبدّ والمتسلّط والمقاتل الشرس وظيفة ديمغرافية «عقارية». فهو يحظر على زوجته التي أنجبت له أحدَ عَشَرَ ذكراً اللّقاء بمخلوق غير القابلة القانونية.

الحب علاقة مستحيلة بين نمر وزوجة أبيه الشابة التي عجز الأب عن إرضائها. هو حب محكوم بالموت: إذْ يموت نمر في إحدى المعارك.

كاترين عمة الراوي، ربّة الأسرة، تستفيد من الاضطراب الأمني لتنزل إلى بيروت وتلتقي بمن ترغب من الرجال.

الحب إذن ثمرة محرّمة مشتهاة ولكنّها سامّة، يُقتل من يجرؤ على قطفها.

خلاصات

الجسد الانثوي مُـمَـأْسَسٌ -in stitutionalisé تملكه الجماعة وتشرّع وظيفته وتحدّد اداءه مزوّدةً بالتعاليم الدينية والأعراف، تحمي بها التركيبةَ الأبويةَ القائمةَ على سلطة الرجل وامتلاكه جسدَ المرأة. وتقوم سياسةُ الجماعة المالكة على تحصين عذرية الفتاة حتى تلقى مَنْ يخطب ودّها، وعلى عدم المسّ بمؤسّسة الزواج حفاظاً على النظام الاجتماعي وضبطاً للنسل والملكية.

وبمعنى ما فإنّ جسد الرجل هو أيضاً مُـمَـأْسَسٌ، منوط به تأسيس أسرة ولكنه معفيٌ من العذرية. وفي **رسالة ما بعد الموت** يحرّض البطل على الزواج والإنجاب ويجبَر إبراهيم على الزواج ممّن أخصب خلال إحدى مغامراته. ولحماية مؤسسة الزواج ومراعاةً لخواطر الرجل تُطْلق يداه خارجها وتُترك له حريةُ معاشرة المومسات؛ والنصوص الأربعة التي قرأنا تشير إلى وجودهنّ وبقسوة، ولكن وحده فرنسوا يتعاطف معهنّ ويحاول حمايتهنّ من القصف.

وأياً كانت البداية، فإنّ تقييد المجتمع للمرأة يحدّ من حرية الرجل ويجعل حياته العاطفيّة غيرَ حرّةٍ وسلوكَه العشقيّ مبتوراً لأنه يتعامل مع امرأة لا تملك ذاتها.

وفي السياق نفسه تحتاج صيانةُ الجسد المُـمَـأْسَسِ إلى حملة شرسة في سبيل الطهرانية، معزّزةً بمفهومي الخطيئة والعيب وبمبرّرات جريمة الشرف... وإنْ كانت **ذاكرة الأرز** هي الوحيدة التي خلتْ من ذكر هذا الطقس الاجتماعي.

هذه الطهرانية التي تقيّد الأنثى وتؤذي الذكر تبرّر العلاقات السريّة عند المتزوّجين وغير المتزوّجين. فـ«جان» تلتقي بسركيس في شقّة سرية، وابراهيم يصطاد زبونات شقيقاته ويضاجعهن في الخفاء، والرواي في **رسالة ما بعد الموت** يستقبل المومسات في شقّة سريّة وسط العاصمة؛ وحين كان صبياً صغيراً كان يمارس الممنوع تحت الأغطية، متحايلاً على عظات مربيه اليسوعيين بممارسة طقس الاعتراف.

وحين يضيق الفقير ذرعاً برغباته الطبيعية تستميله العلاقاتُ السحاقية. وهكذا تقاوم منال إغراءَ جسد ماري الرخامي الممدّد على السرير. وفيما تترافق العلاقاتُ اللاشرعيةُ المتفلّتة من قوانين الجسد المُـمَـأْسَسِ في البيئات الفقيرة سواء أكانتْ مدينية أم ريفية، درزية أم سنيّة، مسيحيّة أم شيعيّة مع الإحساس بالذنب أو بالتهديد والوعيد، ينتفي هذا الإحساس لدى الطبقات المثقفة البورجوازية ذات النهج الفرنكفوني: فلا تستفزّ فرنسوا العلاقات الحرّة ما دامتْ مصدرَ فرح ولذّة؛ ويبارَك

عشق «جان» لسركيس ولورين لمروان وندى لشاب فرنسي؛ كما أنّ جان وابنتها ندى كانتا تستقبلان عشيقيْهما في شقّتهما الباريسية برحابة واطمئنان؛ ولا يحسّ بطل دومينيك إدّه بالذنب تجاه تنوّع علاقاته. وهذا يفضي إلى القول إنّ البورجوازية الليبرالية تعيد النظر في تكريس الجسد المُمَأْسَس بما يتلاءم ومصالحها.

وفيماَ تتحايل البورجوازية وتتملّص من كوابت الجسد المُمَأْسَس ومقتضيات الطهرانية، يكتفي الشبابُ في مجتمع الفقراء بالاستماع إلى مغامرات أحدهم ومشاهداته. وهكذا يعزّ الحب ويندر في مناخ أبويّ ذكوريّ فقير، فيما تحياه الطبقاتُ، ولاسيما المثقفة، بتشنج أقلّ بكثير.

– العلاقات العاطفية، زواجاً أم عشقاً أم حرماناً، منسوجة على شاكلة الوطن القائم على ازدواجية الانتماء غرباً وشرقاً وعلى التكاذب الطائفي والتفاوت الطبقي.

– العنف يؤجّج الرغبةَ عند جميع الشخوص ويهدّدها: فسركيس، ومروان، ونمر، وجوليس، وألبير يموتون قتلاً؛ وفي موتهم إشارة إلى الحب الصعب.

– الحب درع تقي من العنف: فجان، وندى، وسركيس، ولورين ومروان، ومنال، يهربون من العنف إلى الحب.

يتبيّن ممّا سبق أنّ الحبّ مرتَهَنٌ غالباً لاعتمادات خارجة عنه. فهو مسخّر لخدمة مؤسسات: الزواج، والعائلة، والأولاد، والملكية، والطائفة، والحزب، معزّزةً بالقوانين المذهبية والمدنية. ويتبيّن أنّ بعض الشرائح الاجتماعية تخضع للكوابت، فيما تنفلت أخرى من ضغوطاته المؤسساتية. ويتّضح أيضاً أنّ مقاومة العنف تحتاج إلى مزيد من الحب، وأنّ العنف العسكري يفضح الخلل العلائقي بين الرجال والنساء ويعطّل التفاهم ويهدّد الحب. ويتبدّى لنا أيضاً أنّ الحب العميق الذي يملأ العقلَ والوجدانَ والحواسَ شبهُ غائب، لأن الحبّ – على الأرجح – يحتاج إلى «أنا» متماسكةٍ وإلى صورة إيجابية عن الذات تسمح للمرء بتقدير ذاته ومحبتها من أجل تقدير الآخرين ومحبتهم. وإذا كانت هذه الصورة مهدّدة بفعل حصار الجسد والقهر والفقر والحرب فإنّ الحب يغدو من عجائب الدنيا.